رجلان وامرأتان

للأستاذ محمد سعيد العريان

لم يكن من طبيعتها الزهو والمباهاة ، ولكنها تشعر الليلةَ بين إدانها وصواحبها أنها قد بلغت مرتبةً من حقها أن تُزْهى بها وتفتخر ؛ إنها خطيبة « سامى » ، وهذا خاتم الخطبة فى إصبعها يزهو ويتألق شعاعه ؛ وأى صواحبها لم تعرف « سامى » أو تسمع به ، وإنه من الشهرة وذيوع الصيت حديثُ كل فتًى ونجوى كل فتاة !

وراحت « رشيدة » تخطر بين رفيقاتها تتقبل التهانى وتوزّع الابتسامات مغتبطةً سعيدة ، لا تكاد تستقر على مقعد من خفة الفرح ونشوة المسرة ...

لأول مرة فى مجلة «الإمام» ، ثم أفردت فى كتاب، وذلك عمل ينطوى على جرأة كبيرة من المؤلف والناشر ، لأن الرسالة صودرت عقب تداولها . وأول كتاب أصدره فى مصر هو كتابه « مصادر التاريخ الإسلامى » الذى صودر بمرسوم ملكى من جلالة الملك فؤاد، وهو آخر مرسوم صدر من جلالته قبل وفاته . ومن هنا يعرف أن حياته الأدبية كانت قصيرة إلا أنها كانت ملأى بنشاط جدير بالإكبار والتقدير ، فقد كان يعتكف الأيام المتوالية حتى ينتهى من وضع كتاب، أو إخراج بحث، أو يستوعب عدة مؤلفات قراءة ودراسة ؛ ومن نتاج ذلك الاعتكاف كتابه « الأنساب العربية » ، وكتابه « الزهاوى الشاعر » . وقد اهتم الأستاذ سامى الكيالى صاحب مجلة «الحديث» السورية بدراسات أدهم فرحب بها وأصدر بها أعداداً ممتازة، كدراسته للدكتور طه حسين ، والشاعر التركى عبد الحق حامد ، وأخيراً الأستاذ توفيق الحكيم ، ومن أطرف ما يروى بهذه المناسبة أنه كان مختلفاً مع صاحب الترجمة على مولده، إذ كان توفيق الحكيم يذكر أن مولده فى عام ١٨٩٨ ، ولكن أدهم يصر على أنه ولد فى عام ١٩٠٣ ؛ وعما يدهش القارئ إيراد أدهم لأدلة منطقية لا يملك الإنسان معها إلا أن يسلم بخطأ توفيق الحكيم نفسه فى معرفة مولده

وكانت إدارة « الحديث » تستعد لإخراج عدد خاص بدراسته لميخائيل نعيمة ، كما كانت تستعد إدارة المقتطف لإخراج دراسته لخليل مطران لتهديها إلى مشتركيها هذا العام ، ولا أدرى ماذا تم فيها، وإن كنت أعرف أن المؤلف كان يستعجلها فى إخراج كتابه قبل وفاته، لأنه كان يريد أخذ نسخة معه إلى أوربا ، إذ كان يعتزم السفر بعد تغير الموقف الدولى ؛ واشتدت الرقابة عليه لشبهات لا محل لها من الصحة ، إذ أنه كان فى أيام السلم يرسل بعض أبحاثه لتذاع من محطة بارى العربية ، كما أنه كان ينشر بعض أبحاثه فى مجلة (المستشرقين الألمانية) منها نقده لكتاب حياة محمد، وقد أشار إلى ذلك النقد الدكتور هيكل فى مقدمة الطبعة الثانية من كتابه بعد أن أغفل اسمه .

ولما لم يتمكن من السفر والهروب من قنص الرقابة ضاقت به الحياة فودعها ومضى

(لنا عودة) عبد الحفيظ نصار

... ثم انفضّ السامر وخلت « رشيدة » إلى نفسها تحلم بما كان وبما يكون ، وتهيأ لليوم السعيد المنتظَر !

* * *

فتى فى ربيع العمر ، لم يفتنه الشباب ولم يبطره الغنى ، تنوّر أملاً بعيداً فمضى يشق الطريق إليه فى عزم وقوة ، وبلغ؛ وبرز اسمه فى الطليعة من أدباء الجيل ولم يزل فى أوّل الطريق ، وذاع اسمه كما ينفذ شعاع الصبح فتكتحل كلُّ عين من نوره ويمحو كل نعسان ؛ وشدَت القارِئ بأغانيه فى الرياض ، وهتفتْ بها العذارى ، وتغنّى الفِتيان ...

... ودُق الجرس ذات مساء فى دار رشيدة ، وجاء سامى يخطبها ... ، وتوافد إدانها وصواحبها يهنئنها ويتمنّين لها ...

... وراحتْ تتخيّل نفسها إلى جانبه يعشيان ذراعاً إلى ذراع تحدّثه ويصغى لها ، والناس تهتف باسمها واسمه ، والعيون تتبعهما حيث يتنقلان من روض إلى روض فى طريق مفروش بالزهر ، والأصابع تشير إليهما فى همس : أنه لَهُوَ ، وإنها ...

ولدّها الحلمُ السعيد ، فطارت بغير جناح تحلّق فى وادى المنى سكرَى !

وتنابتْ على عينيها صُور ؛ وأفاقتْ من سكرتها مذعورة

لصورة عَرَضَتْ ؛ وتخيَّلته يحفّ به فتياتٌ يسألنه ويجيب وفى عيونهن معانٍ وفى عينيه معنى ؛ ولذعتها نار الغيرة وساورها القلق ، وراحت تسأل نفسها : أتُراه - وهو مَن هو - لم يفتح قلبَه لفتاة قبلها ولن يفتحه ؟ فكيف ، ومِن أين لها ، وإن اسمه لحديثٌ على الشفاه ونجوى فى القلوب ! ... أم تراه يخلص لها فلا يغلبها على قلبه أحد ؟

وابيضّتْ ذُؤابةُ الليل وما تزال أحلامُ اليقظة تُراوح بين جنبيها فى الفراش !

* * *

ومضت ليال ، وأَنِسَتْ رشيدةُ إلى فتاها وأَنِس بها ؛ وتتابع اللقاء بينهما فى الحلم حيناً وفى اليقظة ؛ وتكاشفا نفساً لنفس فاطمأنّت وزال ما كان يساورها مِن هم ، واسترسلت فى أحلام السعادة والمجد ، وهى تحصى ما بقى من أيامها حتى يكون لها

وجاء اليوم الموعود وزُفَّتْ رشيدةُ إلى سامى ...

* * *

« يا هَنَاها ! »

ذاك حديث كل صواحبها ؛ أفتراها كانت تسمع ما يتحدّثن؟

أما هو فكان من شأنه فى شغل عما يتحدث الناس ؛ لقد وجد الاستقرار والراحة منذ وجد رشيدة ؛ فانصرف إلى غايته دائباً لا يشغله من شئون الحياة إلا فنُّه والأمل الذى ينوّره على مبعدة

وأما هى ... أين هى من أحلامها التى كانت تداعبها فى اليقظة وتُلِمُّ بها فى المنام ؟

هذا عام مضى منذ دخل سامى فى حياتها وشاركته فى داره ؛ فماذا تحقق من أمانيها وماذا بقى ؟ وماذا يجدى عليها صيتُه ومجدُه وشهرته وإنها لحبيسة الدار لا تتحدث إلى أحد ولا يتحدث إليها أحد ؛ وزوجها الذى خلق لها دنيا عريضة من الأوهام والأمانى حبيسٌ فى غرفته مكبٌّ على أوراقه ودفاتره !

هذه الصحف التى تتحدث عنه ، وهذه الكتب التى تصدر باسمه ، وهذه الجماعات التى تدعو دعوته وتُشيد به ... كل هذه أوهام وخداع وتلبيس على الحقيقة . لقد حسبتْ يوماً أنها ستكون أسعدَ زوجةٍ فيمن تعرف من صواحبها ؛ لأن هذه الأوهام المكتوبة كانت تُخيِّل لها وتخدعها عن الحقيقة ؛ أما اليوم ، وا أسفا !

إنه ليحبها وإنها ... نعم ، لقد كانت تحبه ؛ ما فى ذلك شك ؛ أما اليوم ... آه ! ليتها تستطيع أن تقول ... ليتها تستطيع أن تعرف ...!

إنها لتحس فى بعض الأحايين أنها تكرهه ، شوقاً إليه !...

ليتِ شعرى ، ما الحب ؟ وما البغض ؟ ... أهما معنيان متناقضان أم هما اسمان لمعنى ؟

وما الحقيقة ؟ أهى شىء واحدٌ أم شيئان ، ولونٌ واحدٌ أم ألوان ؟

إنه هو هو ، وإنها هى هى ؛ لم يتغيّر شىءٌ منها ولم يتغيّر شىءٌ منه ؛ ولم يَزَلْ هو كلَّ شىء فى حياتها ولم تزَلْ ؛ وهذه الأشياء التى كانت تحببه إليها يوماً هى هى التى تبغّضه إليها اليوم

إن الباطل المُزَاح أحبُّ إلى النفس من الحقيقة المتلوّنة !

* * *

واحتوشتها الأفكار فلم تعرف ماذا تأخذ وماذا تدع ؛ فأطرقت ، وأرسلت عينيها ؛ وكان سامى فى غرفته يكتب ويؤلف !

... وفرغ من موضوعه بعد هدأة من الليل ، فرفع أوراقه بين عينيه والمصباح وراح يقرأ ، وأعجبه عمله ؛ فهتف : رشيدة ، تعالى اسمعى !

وماذا يجدى عليه رضا الناس إن لم ترض رشيدة ؟ ولكن رشيدة كانت مطوية على نفسها فى الفراش تبكى ؛ ودنا منها ، فجفّفتْ دموعها واعتلّتْ ؛ وجلس على حافة الفراش محزوناً أسوان يسألها عن علتها ؛ وما كانت علتها غيره !

وطوى أوراقه صامتاً ، وأوى إلى الفراش منكسراً ذليلاً ؛ وأصبح كما يصبح كل يوم ، وكما أمسى ؛ وأصبحت كما أمستْ !

* * *

وجاءت صديقتها « سعاد » لزيارتها ؛ وما زارتها فى بيت زوجها قط ؛ وخلت رشيدة إلى صديقة صباها تحدثها وتستمع إليها ، وخلا سامى إلى نفسه يعمل ...

وقالت سعاد : وإنى لأسمع عنك وأعرف ، فيسرنى هناؤك ... وإنك لحقيقة أن تسعدى بسامى ... !

وابتسمت رشيدة وسكتت !

ونهضت الزائرةُ فشيَّعتها صديقتها على ميعاد

وذهبتْ رشيدة لتردَّ الزيارة لصاحبتها ؛ ولقيتْها سعادُ فى غلائلَ وشفوفٍ وجَلْوةِ عروس ؛ وأحسنتْ استقبالها ؛

ثم وَدَّعَتْها لحظة لتسرّ إلى زوجها حديثاً وعادت ، وأحست رشيدة أن صديقتها فى شغل ؛ فأوجزتْ ، وسألتها : أرجو ألا يكون فى زيارتى ما يشغلك عن شىء !

وابتسمت سعاد وأجابت : ليس شيئاً ذا بال ؛ كنا على أن نشاهد رواية فى السيما ، فطلبتُ إليه أن يذهب وحده إذا أراد ! لقد شاهدناها مرة منذ يومين !

وغمغمت رشيدة بكلام ، ثم أطرقت ؛ أتراها كانت تحدّث نفسها أم تحدّث مُضيفتها ، وماذا همّتْ أن تقول ؟

وخفّفتْ فنهضتْ ، وفى قلبها حسرة ، وفى صدرها غيرة ، وفى رأسها فكر !

وقالت سعاد لزوجها وقد ذهبت رشيدة : « زوجة سامى ! »

واستطردت : « إنها صديقتى منذ الطفولة ! ألا تقرأ له ؟ قل لى : لماذا لا تحاول أنت . . . ؟ إن له مستقبلاً عظيما ! لقد بلغ . . . هل سمعْت . . . وله جاهٌ وشفاعة . . . إننى ورشيدة صديقتان ، لم نفترق منذ كنا ، حتى تزوّجتْ ، وخطبَها على غفلة . . . ! »

* * *

... وأدارتْ رشيدةُ مفتاح المذياع وجلستْ مرتفقةً إليه تنتظر ؛ إن زوجها هناك ؛ وما بها شوق إلى أن تستمع إليه ، لولا أن صوته فى المذياع يردُّها لحظاتٍ إلى ماضيها ، أيام كانت فى بيت أبيها مُسمّاة عليه ؛ تلك أيامٌ خلَتْ ؛ وكان صوته يلذها ويبعث فيها نشوة . . . أوه ! أين اليقظة من الحلم ؟ أكُتِبَ علينا ألا نرى السعادة إلا طيفاً فى المنام أو حلماً فى اليقظة ؟

وتسرّحت رشيدةُ فى أوهامها ...

... وكأنما أحسّ سامى من رشيدة فتوراً وانقباضاً ، فأهمّه ما أحسّ ، وراح يحاول أن يصلح ما بينه وبينها ، وعطف عليها يسألها فى رقة : ماذا بك يا رشيدة ؟

وانفجرت رشيدة غاضبة صاخبة ، وكشفت الحجاب ، ونفضت عليه ما تكظم من الغيظ منذ عام ؛ وطأطأ رأسه يوازن ويقدّر ويحكم ؛ وبدت له الحقيقة سافرة وانكشف عنها غطاؤها ؛ وآثرها بالرّضا فقدّم لها معاذيرَه !

وتغيّر سامى منذ اليوم ، فأغلق دار كتبه وأقبل على زوجته ؛ وفى المساء كانا يمشيان ذراعاً إلى ذراع فى الطريق على أعين الناس ؛ وصحبها إلى السيما ، وسهرا معاً فى الأوبرا ، وتعشّى معها فى مطعم ؛ وراقصها على نغمات الموسيقى فى الحديقة ، وعاد معها إلى الدار مخموراً قبيل الصباح !

وعرف سامى منذ الليلة أن فى الحياة ألواناً من اللذة لم يذقها بعدُ وقد أوشك شبابُه ؛ فاشتهى وتمنّى ...

وفاءت رشيدةُ إلى الرضا وسرّتها حياتها الجديدة فطلبت المزيد !

* * *

وكانا يمشيان على ضفاف النيل حين اعترض سبيلهما سربٌ من الحسان . وقالت إحداهنّ وأومأت إلى سامى : أتنه لَهُو ! فأحنى رأسه مبتسما وأتبعها عينيه ؛ وأغضتْ زوجتُه !

ولم تجد رشيدة من نفسها فى الليلة التالية رغبة فى الخروج ؛ فخلفها فى الدار ومضى وحده ؛ وأشرقت الشمس قبل أن يعود ، وهمّت زوجته أن تتكلم فتركها وما تريد ومضى إلى فراشه ...

وعرف عنوانَه من لم يكن يعرف من عشاق أدبه ؛ فكثر زائروه وزائراته ؛ وراح يقتضى الناسَ ثمنَ إعجابهم بفنه لذائذَ وشهوات ...

وتدحرجت الكرةُ على المنحدر المائل واستمرتْ تهوى ...

... وجاءت سعاد لتزور صديقتها ، وقالت : أين سامى ؟ منذ بعيد لم نسمع ولم نقرأ ... !

وابتسمت رشيدةُ وسكتتْ ؛ شأنها فى يوم مضى ؛ ثم أطرقت وعضت على شفتيها تحاول أن تحبس زفرة ألم !

ونهضتْ الزائرة وخلت رشيدة إلى نفسها تبكى ؛ وخيّلتْ لها أمانيها أنه هناك ، فى غرفته ، يكتب ويؤلف ، وأنه يوشك أن يفرغ من موضوعه فيهتف بها : رشيدة ! تعالى اسمعى ! كما كان فى ليلة منذ ليال ! ... ولكنه لم يفعل ، لأنه ليس هناك !

... ...

* * *

. . . ثم استيقظت وهى مرتفقة إلى المذياع ، ورنّ صوته فى مسمعيها قادماً من بعيد ، صوت ندى رطب ، يتحدث فى وداعة ولين . لم يكن حديثه إليها ، ولكنها وجدت بَرْدَه على قلبها ، فدمعتْ عيناها فرحانة ؛ وهتفت : سامى ! عُدْ إلىّ !

ولم يسمع نداءها ، ولكن خاتمة حديثه فى المذياع كان جواب النداء ...

محمد سعيد العريان

{ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى — عابدين }